شقائق الصناديد

حول قضية توسيع فرص مشاركة المرأة في الحياة العامة للمجتمع المدني ، شهدت الساحة السياسية في الآونة الأخيرة جدلاً واسعاً بشأن تفعيل دورها ومساهمتها في الانتخابات البرلمانية القادمة ، وبما يسهم في زيادة عدد النساء المرشحات لنيل عضوية البرلمان .

بوسع كل من يطالع المناقشات والكتابات التي نشرت في صحافتنا حول هذه القضية الحيوية، أن يلاحظ قلقاً واضحاً لدى النساء الناشطات في مجال الدفاع عن الحقوق المدنية والسياسية للمرأة ، وهو قلق يصدر عن مواقف متضاربة و موزعة بين الاعتزاز بما حققته المرأة اليمنية من مكاسب تستوجب حمايتها وتعظيمها من جهة ، وبين الخوف على مصير حقوق المرأة بسبب تفشي النظرة الدونية للمرأة من قبل رجال الدين وأحزاب المعارضة على وجه الخصوص من جهة أخرى .. والمثير للدهشة أن تتزامن التحضيرات الواسعة لمرحلة تسجيل المرشحين الذين سيتنافسون على مقاعد البرلمان المنتظر ، مع تزايد اهتمام الحركة النسوية بتعظيم حضور المرأة في السلطة التشريعية !! .

أحمد الحبيشي

ربما يكون من حق الناشطات في الحركة النسوية تحميل المجتمع الخاضع لسلطة الثقافة الذكورية مسؤولية النظرة الدونية الإقصائية التي تهدد حقوق المرأة ، وتسوغ لبعض رجال الدين الكهنوتيين وبعض النخب السياسية القديمة ممارسة التدليس والتلبيس والإفراط في الدعوة الى مصادرة هذه الحقوق.. بيد أن الواجب يقتضي تبصير المرأة بطبيعة آليات الكبح التي تهدد حقوقها وتصادر قضيتها ، بعيداً عن العموميات التي تتهم المجتمع ـ بكافة قواه الحية والمتكلسة على حد سواء ـ بالتمييز ضد المرأة، وتخلي في الوقت نفسه ساحة النخب العاجزة التي ترفع شعارات شعبوية عن العدالة والديمقراطية والمساواة والحداثة والتنمية، بينما تتعامل مع قضية المرأة ـ على صعيد الممارسة ـ بعقلية بطريركية ذكورية لا تخلو من من مثالب الظلم والإستبداد والرجعية !!

على هذا الطريق بادرت منظمات المجتمع المدني المهتمة بتنمية الديمقراطية في بلادنا ، الى تنفيذ عدد من برآمج الدعم والمساندة للنساء الراغبات في خوض المباراة الإنتخابية القادمة، وبالمقابل تواصل قوى الظلام خوض معاركها المسعورة ضد الحقوق المدنية والسياسية والانسانية للمرأة بهدف إعادة عجلة التاريخ الى الوراء وتجويف كل الانجازات والتحولات التقدمية التي تحققت منذ قيام الثورة اليمنية في بداية الستينات ، وترسخت جذورها بعد بزوغ شمس الوحدة والديمقراطية في مطلع تسعينيات القرن المنصرم.

لا ريب في أن كفاح المرأة من أجل حقوقها المشروعة ـ كان ولايزال ـ يشق طريقه الصعب وسط ضياء الشمس في زمن الثورة الحبلى بالآمال الخضراء والأشواق الحرّى ، متدثرا بالتعب المكابر، حاملا قلباً أخضر نحسبه بعضاً من النقاء في زمنٍ يصارع التلوث والتوتر والفساد.

وفي كل المنعطفات كان كفاح المرأة اليمنية يتجه بثبات إلى مدائن الأحلام الكبرى.. والاختيارات العظمى.. ويزحف بلا تردد صوب عوالم الدهشة وأزمنة التحولات الثورية الجسورة .

من جانبهم يواصل أنصار حقوق النساء تجسيد انحيازهم إلى حقوق المرأة بوصفها شريكا حرا للرجل . وانطلقت أصوات العديد من هؤلاء الأنصار مدافعة عن هذه الحقوق المشروعة على رؤوس الأشهاد . وكانت قضية المرأة في كل الظروف والمنعطفات تجسد الإنتماء الى العصر ، وتقاوم كل أشكال الحصار المفروض حول النساء ، وتجسد الفرح الانساني مهما أشتدت أوجاع شقائق الرجال.. وتتمسك بالوعد الطالع من فجر الثورة مهما ارتعشت أعاصير ورياح صحراء البداوة .

ونحن .. من نحن ؟

قد نكون بعضا من الذين هامَ بهم الاقتفاء الطويل على صراط التغيير المثقل بالآلام والمواجع.. واستهاموا ببروق الثورة الحبلى بالبروق والغيوث .

قد نكون بعضا من الذين أرهقتهم الأشواق ، فاستعجلوا الوقت كيما يتوارى عنهم حصار الزمان والمكان .

نحن نمضي بثبات وإصرار الى اليوم الذي تنتصر فيه حقوق النساء.. وعندما نواجه طيور الظلام ، يتعمق انحيازنا لهذه الحقوق التي استعادت بهاءها في زمن الثورة والوحدة والحرية .. ويقوى اصرارنا على التوحد بإشراقات الوعد والتجدد.

نقول لمن سرقوا من المرأة أحلامها وحقوقها في زمن أغبر مضى.. ولمن يريد أن ينزع عن المرأة خصوبة النماء في زمن العطاء: هو ذا طريقنا الذي لا تبدو له نهاية مهما كانت تعرجاته والتواءاته.. وهو ذا إصرارنا الباقي بعد أن نفضنا عنه غبار الأسفار ، وأزحنا من طريقه حواجز الإستلاب، ورفعناه فوق هامات الإحتمال.

هو ذا اختيارنا الذي لا رجعة عنه ، ولا اغتراب فيه ولا مساومة به.. فلنرفع عالياً صوتنا الأبقى ، واحتمالنا الأقوى.. ولنواصل معاً بداياتنا الراحلة بثبات صوب ذرى التاريخ الجديد في كل وصال يأتي ويتجدد .

وعندما نهفو الى الزمن الجديد ، نشعر بأن للوقت دبيباً في العظام.. وامتلاء في الوجدان.. وحضوراً في ذاكرة الزمان والمكان.

وحينما ينتفض الوقت معلناً ثبات المسيرة التي تقاوم الرياح والأنواء.. يمتد مخاض الثورة المعطاء مستحضراً خبرة كل الحالمين ، وأوجاع كل الصابرين، وهموم كل المسافرين.

وفي كل المعارك والمحطات والمنعطفات لم تكن المرأة وحيدة.. فما من حلم إلا وكان لها فيه موكب بين المنازل والشوارع والورى.. وما من أثر تتركه المرأة في حضور اليَقظة ، إلا وصار بريقًا في العيون ، وأغاني على الشفاه، ونقوشاً في القلوب ، وإصراراً على تجسيد الانتماء.

هكذا هي المرأة .. نهر يتسع في لجة العشق.. وتيارٌ باردٌ يمتدُ بين الجراح.. وضوء يتسامق فوق الرياح.. وطفولة توزع البراءة بعد رحيل الليل الذي حاول اغتيالها .

هكذا هي المرأة.. حرية كالحلم ، كالفضاء.. حياة كالخبز، كالمعتقد.. وشاهدٌ كالأفق ، كالوطن.

ولأنها كذلك.. فإننا نحيا بالانحياز إليها والانتصار لحقوقها.. ونزداد توحداً بظلال طيوفها الثرة، وأنفاسها الحرّى.

ولأنها كذلك.. فنحن لا نخاف الخوف.. و لانهتم بنباح الكلاب ، ولا نضعف أمام طلول الجراح.

نحن ـ كما قال الطبيب والشاعر والكاتب الاسلامي المصري حسن احمد عمر ـ نكره من يظلمون جميع النساء ، ونحب الأمومة فى قلوبهن و الوداعة فى وجوههن ، لأنهن الجذور والكرامة والإنتماء.

نحن نكره من يظلمون النساء ، ونكره كل الطغاة الجبابرة المجرمين دعاة الغباء والمذلة والمهانة والتحجر والإنزواء والإزدراء.

ونحن نكره من يجعلون النساء وعاء وداء .. ونكره أيضاً كل الذين يسلبون النساء حق الوجود وحق الكلام وحق الغناء وحق النماءْ .

نحن نكره من يحرمون النساء طعم رحيق الثقافة والعلم والعمل والإرتواء .

نكره الذين يريدون أن يدفنوا المرأة في قبر الثعبان الأقرع ويحاصرونها بالأساطير والخرافات التي تصادر انسانية المرأة، وتقدم جسدها وجبة شهيةً على موائد اللئام الذين يلتهمون حقوق النساء .

نحن نحب جميع النساء لأن لدى كل واحدة منهن عقلا فريدا وقلبا حنونا ، وعزما صبورا ، وإرادة عنيدة مثل الحديد .

نحن نحب جميع النساء لأن من بينهن الأمهات والزوجات العظيمات اللائي أخرجن عظماء الرجال الى هذا الوجود .

نحن نحب جميع النساء وفي كل واحدة منهن حنان رهيب يشد عقل وقلب كل رجل الى كل إمرأة .

نحن نحب جميع النساء لأن من بينهن أمهاتنا وحبيباتنا وأخواتنا ورفيقاتنا ومعلماتنا وطبيباتنا ورائداتنا اللواتي يملأن الحياة بأعظم الأعمال وعطر الآمال وضوء الأحلام .

نحن نحب جميع النساء لأنهن ينشئن في قلوب الرجال صروحا عظيمة المعاني .. ويجعلن الحياة على ثقلها تمر وتمضى سريعاً، ويغمرن الليل بالنور الذي يقاوم خفافيش الظلام .

نحن نحب جميع النساء لأنهن يمسحن من وجوه الرجال دموع الليالى الطويلة بالصبر والإحتمال ، ولأنهن زهور الربيع وربيع الجميع ، وشموس الوجود ، وشقائق كل الرجال الصناديد .

عن / صحيفة (26 سبتمبر)

ما هو أبعد من الإرهاب

تركي الحمد

في عام 1967، وفي أعقاب هزيمة يونيو (حزيران)، أذكر أننا خرجنا من مدارسنا في مظاهرات عارمة تستنكر الهزيمة التي جرحت كبرياءنا المجروحة، وذاتنا المكلومة، فأخذنا نهاجم كل أميركي أو بريطاني نجده في طريقنا. لم يكن تمييز الأميركي أو البريطاني سهلاً، لذلك انصب جام الغضب على كل أبيض نجده في طريقنا، لدرجة أن الكثير من العرب البيض كانوا يتعرضون للضرب لمجرد كونهم بيضاً. كان الجميع غاضباً تلك الأيام على ما حدث، وكنا من المراهقين وقتئذ، فكنا ننفس عن غضبنا بالعنف ضد كل ما هو أميركي أو بريطاني. لماذا هاتان الجنسيتان بالتحديد؟ بكل بساطة لأن إعلامنا العربي حينذاك، وخاصة الإعلام المصري رد الهزيمة إلى التدخل الأنجلو أميركي إلى جانب القوات الإسرائيلية المحتلة، وأن مؤامرة قد دبرت بليل حالك السواد للقضاء على «المارد» العربي، أو ما قيل لنا أنه مارد عربي، ومنع نهضة العرب من جديد.

وفي حرب اكتوبر عام 1973، كان إعلامنا يصدح ليلاً نهاراً بأنه لولا التدخل الأميركي إلى جانب إسرائيل، لكانت جيوش العرب قد وصلت إلى شواطئ حيفا وسواحل تل أبيب. بل وقبل كل ذلك، وفيما يتعلق بالقضية الفلسطينية تحديداً كان كل شيء نرجعه إلى تلك المؤامرة التي يحيكها الغرب ضدنا لضرب القومية العربية، حين كان المد القوموي هو سيد الساحة، أو لضرب الإسلام، حين أصبح المد الإسلاموي هو سيد الساحة، وعد بلفور، التعاون البريطاني مع العصابات الصهيونية، الاعتراف الأميركي بإسرائيل، العدوان الثلاثي، إلى آخر الأدبيات التي يعرفها كل عربي. بل إن الجميع، قوميين وإسلاميين، يتفقون على أن الكيان الصهيوني ما أقيم على أرض فلسطين إلا لشق الكتلة العربية الممتدة من المحيط إلى الخليج، كخنجر غرز في الجسد العربي الواحد، في الخطاب القوموي، أو لمنع قيام كيان إسلامي واحد وامتهان مقدسات الإسلام والمسلمين، وفق الخطاب الإسلاموي.

قد يكون في كل ما قيل شيء من الصحة، ولكنه لا يمكن أن يكون صحيحاً كل الصحة فيما لو أردنا القيام ببحث موضوعي في هذه الناحية. والحقيقة أنه ليس مجال الحديث هنا فلسطين والقضية الفلسطينية، بقدر ما أنه مدخل لمناقشة قضية أصبحت شاغل الجميع هذه الأيام، ألا وهي قضية الإرهاب وما يقف عليه من أساس نظري هو التطرف وفكر التطرف. ففي معظم الأحوال تشخص هذه الظاهرة، أي ظاهرة الإرهاب، من قبل إعلامنا ومؤسساتنا الرسمية على أنها ظاهرة معزولة أو وافدة أو غير ذات جذور في التربة الاجتماعية والثقافية المحلية، المعبر عنها بخطاب إعلامي يتجاهل ما هو دون سطح الأرض ليدين ما هو فوق السطح، فنكون بذلك كذاك المريض الذي يحاول إقناع نفسه أن ما يعاني من ألم هو مجرد صداع بسيط يذهبه قرص من الأسبرين، بينما هو يعاني حقيقة الأمر ورما في الدماغ يحتاج إلى عملية جراحية كاملة كي يُستأصل. قناعة المريض، أو حتى رغبته في أن يكون الأمر كذلك، بأن ما يعاني منه مجرد صداع بسيط لن يقضي على المرض، بل إنه سيجذره أكثر، ويكون المريض في النهاية هو الجاني على نفسه. ما نحتاج إليه في معالجة هذه الظاهرة المتصاعدة من الإرهاب وفكره، هو الشفافية المطلقة في مناقشة الأمور، ووضع الإصبع على الجرح مباشرة، دون محاولة لخداع النفس لن يكون ضحيتها في النهاية إلا ذات النفس.

مشكلتنا لا تكمن في مجرد عدد من الأفراد يقومون بعملية إرهابية هنا وعملية إرهابية هناك، بقدر ما هي أزمة عامة انفجرت في آخر المطاف على شكل فعل إرهابي، وستبقى تنفجر بين الحين والآخر بشكل دوري ربما، فيما لو لم تعالج جذور هذه المشكلة، ومن هنا تكمن أهمية الشفافية وعدم تجاهل أي شيء وكل شيء. هذه الأزمة ليست وليدة اليوم، بل هي كامنة في مجمل خطابنا الثقافي والإعلامي المعاصر، لا فرق في ذلك بين قومية أو إسلاموية أو حتى يسارية، ففي النهاية كلها آيديولوجيات تقوم وتحيا على وجود عدو إن لم يكن موجوداً فيجب خلقه. فالقوميون في أدبياتهم كانوا يلقنوننا دوماً أن الغرب الاستعماري هو عدو الأمة والمانع لتحقيق أحلامها في الوحدة والنهضة، سواء كانت أوروبا هي من كانت تمثل الغرب بالأمس، أو هي أميركا اليوم، المهم أن هذا «الآخر» الغربي الاستعماري هو العدو. والإسلامويون في أدبياتهم يقولون إن الغرب لم يتغير ولن يتغير، فهو صليبي دائماً وسيبقى صليبياً معادياً لدين الإسلام لأنه، أي الإسلام، هو ضده الحضاري القادر على زحزحته عن مركزه في قيادة البشرية اليوم. وبمثل ما أن عالم الأمس تحرر بظهور الإسلام، فإن عالم اليوم لن يتحرر إلا بعودة الإسلام. الغرب الصليبي هو العدو وهو من تجب مقارعته في النهاية. واليساريون يبشرون بأن الإمبريالية هي العدو، سواء كانت إمبريالية أوروبا بالأمس أو إمبريالية أميركا اليوم. الإمبريالية هي التي تقف في وجه تحقيق التقدم والتحرر والمساواة، وبالتالي فإنها هي العدو الذي تجب مقارعته. وبذلك فإن كافة هذه الآيديولوجيات تنتهي في النهاية إلى مصب واحد، لتكون خطاباً واحداً في النهاية يُصب في العقل العربي بمختلف الوسائل، هو معاداة الآخر، والآخر الغربي بشكل خاص.

لُقّنا ذلك في مدارسنا ومساجدنا وجامعاتنا وأنديتنا ووسائل إعلامنا، فهل من العجيب أن لا ننشأ ونحن ننظر إلى العالم من حولنا نظرة شك وريبة وعدم ثقة؟ يضاف إلى ذلك كله أن هذا الخطاب اختزل كل آليات الآخر المعادي «الاستعمار أو الصليبية أو الإمبريالية» لإخضاعنا في آلية مستديمة واحدة ألا وهي المؤامرة. فهذا العدو لا يكل ولا يمل من التآمر علينا خاصة، لأهمية ديارنا في مقابل كل ديار العالم. فلدينا النفط وكل تلك الثروات الهائلة، ولدينا الموقع المتوسط الفريد، ولدينا فوق كل ذلك الحضارة التي لو «بعثت» من رقادها، كما في الأدبيات القوموية، أو كانت هنالك «صحوة» دينية تنفخ الروح في الجهاد، تلك «الفريضة الغائبة»، وتعيد الأمة إلى مركز القيادة في هذا العالم، وتعيد العالم إلى الأمة التي هي خير الأمم، كما هو منطق الإسلاموية المعاصرة. كل هذا النفخ المبالغ فيه في الذات، جعلنا نتوهم، أو نصاب بفوبيا شنيعة من أن كل شيء حولنا يتآمر علينا، فلا نثق بأحد ولا يثق بنا أحد بالتالي، فينبع من ذلك كله آيديولوجيات على مختلف الأنواع، وحسب مختلف الظروف والمراحل، التي تدعو إلى تدمير هذا المتربص بنا دوماً، فتجد الكثيرين ممن يؤمن بها دون فعل، ولكنها في النهاية تجد من يؤمن بها بفعل، وهنا ينفجر الإرهاب في حالتنا.

الإرهاب ليس وليداً يتيماً أو عديم الأب والأم، بقدر ما أنه نتيجة لمقدمات كانت تحاول الإفصاح عن نفسها في كل حين، ولكننا كنا نغض البصر ونصم الأذن عن كل ذلك، ولأسباب مصلحية، سياسية وغير سياسية آنية حيناً، أو هي لأسباب تتعلق بكبرياء ذات نُفخ فيها حتى أصبحت لا تريد أن ترى حقيقة وضعها أحياناً أخرى، أو كلا الأمرين معاً. فإذا أردنا أن نعالج هذه الظاهرة حقاً وفعلاً، فعلينا الاعتراف بأننا جميعاً أسهمنا في مثل هذا الوضع، حين تجاهلنا مشاكلنا حتى وصلت إلى مستوى الأزمة، وحين حاولنا علاج تلك المشاكل بالانتقال من آيديولوجيا إلى آيديولوجيا مختلفة شكلاً، ولكن المضمون خطاب واحد في النهاية. كلنا أسهمنا في تلك الأوضاع التي أدت إلى الأزمة التي كانت أساس الفعل، حين بحثنا عن الحلول في الخطاب، وتبين لنا أن الخطاب هو المعضلة، ومع ذلك لا نزال من المكابرين، فلا نعترف بمكمن الخطأ، فنعمق الأزمة وتدوم العلة.

بطبيعة الحال لن يختفي العنف من حياة الإنسان مهما فعلنا، فهو جزء من قدر الإنسان، ولسنا نعيش في جنة الخلد. ولكن عندما ينتقل عنف ذو طبيعة معينة، من حالة الحادثة إلى حالة الظاهرة، فلا بد أن هنالك مشكلة..لا بد أن هنالك مشكلة.

مفكر سعودي

التجديد الديني والإصلاح السياسي

عبدالرحمن الحاج

ينظر الى الفكر الديني في العالم الإسلامي في كثير من الأحيان باعتباره مسؤولاً عن اعاقة التحول الديموقراطي، بل ويُحمّل مسؤولية التخلف فيه، فلا يستطيع المرء أن يحصي الكتابات التي تجعل الفكر الديني والثقافة الإسلامية مسؤولة عن الاستبداد، استناداً الى أن الفكر السني التقليدي يقوم فكرة الخضوع و «الطاعة» شبه المطلقة للإمام، لكن هذه الرؤية «العقدية» تتسلل خارج منطق الوقائع التاريخية، فمعظم الديكتاتوريات العنيدة قامت على انقلابات «ثورية» يسارية، وحتى الفكر الانقلابي الذي تبنته الحركات الإسلامية ولد تاريخياً بعد الفكر الثوروي الانقلابي اليساري والماركسي!

لقد بقي الفكر الحداثي العربي يسم الفكر الإسلامي بالتخلف لأنه يؤسس للطاعة والخضوع حتى سنوات قريبة، والطريف في هذا الأمر الآن الانقلاب من وسم الفكر الإسلامي من الطاعة الى نقيضها، أعني التمرد والانقلاب والإرهاب، وذلك على ايقاع أحداث 11 سبتمبر 2001. لا نريد الخوض في تفسير هذا الانقلاب الغريب على أسس عقدة الهزيمة التي مني بها الفكر الماركسي، وتأثير «خطف» الإسلاميين الراديكاليين للروح الثوروية التي كان «يحتكرها» اليسار لنفسه.

هذان التفسيران في الحالتين للتخلف السياسي الذي يلقي المسؤولية على الفكر الديني الإسلامي هما بالضبط تفسيران ايديولوجيان، لكنهما شاعا الى درجة بدا كل تفسير منهما – في وقته – كما لو أنه وجهة نظر «علمية».

على كل حال يقودنا هذان التفسيران الى سؤال: هل الفكر يؤسس للتطور السياسي؟ أم أن الممارسة السياسية هي التي تؤسس للفكر؟ ذلك أن كل من التفسيرين السابقين على مسلمة مفادها أن الفكر أسبق من الممارسة السياسية.

يبدو للكثيرين أن الفكر يسبق الممارسة، اذ يفترضون أن الترتيب المنطقي أن يكون الفكر سابق للعمل، وهكذا يذهب البعض منهم الى ان الثورة الإيرانية مثلاً لم تكن لتأتي لولا أن تراكما فكرياً حصل قبلها، غير أن هذا التفسير الثقافوي للمسألة لا يفسر لِمَ لم تحدث حركة الإصلاح الديني منذ القرن التاسع عشر والى اليوم تحولاً ملموساً على أرض الواقع؟ أين ذهب هذا التراكم التاريخي للفكر الإصلاحي؟ صحيح أن نظرية «ماكس فيبر» تتجه الى ارتباط ظاهرة التقدم بالتحول الفكري، لكن رؤية فيبر لا تجعل التقدم مبنياً على تراكم فكري، فقط تجد أن التقدم المادي والاقتصادي على وجه التحديد أكبر وأسرع مع وجود تحولات فكرية جديدة تتركز أساساً في فكر الإصلاح الديني.

الواقع ان الفكر الديني بصفته فكراً شمولياً (لا أقصد المعنى السياسي للشمولية بالتأكيد) عندما يقع في حالة حصار سياسي، يبدأ بإعادة تكييف نفسه، بمعنى أنه يعيد تقويم نفسه، بحثاً عن مخارج للأزمة، وعادة ما تتنازع مفكريه نظريتان: المؤامرة والعلة الذاتية. وبطبيعة الحال تسود فكرة المؤامرة وتلقى قبولاً واسعاً في حالة كهذه، ولهذا السبب فإن الفكر الديني السائد يتحول برمته نحو الدفاع عن الهوية، وينكمش فكر الإصلاح الديني الى حدوده الدنيا، بل ان الفكر الإصلاحي على رغم أن الظروف إياها تجعله أحرص على إعادة التفكير ولكن في منحى نخبوي، اذ يتحول مفكروه الى أقلية، وكتاباتهم ونصوصهم تصبح مكاناً للشبهات من جانب مفكري الهوية التقليديين. في ظروف كهذه سيكون من السذاجة الحديث عن تطور في الفكر الديني يخلق بتراكمه انفتاحاً سياسياً، أو القول إن ردود الفعل السياسية الجذرية للمتدينين متمثلة في حركات إسلامية عنيفة هي ممثل لجوهر الفكر الديني، فنحن في كلا الحالتين أمام أفكار أزمات لا أكثر.

الحقيقة أن الفكر الإسلامي وثقافته وقعا في أوقات كثيرة ضحية حصارين: سياسي وايديولوجي متوسل بالسياسي، جعلاه خلال عقود طويلة محشوراً في زاوية الدفاع عن الهوية، الى حد الوسواس بها، وأفقداه النمو والتطور، ولا تزال آثار ذلك فاعلة حتى اليوم، وإلا كيف نفسر انطلاق الفكر الإصلاحي في فترتين متميزتين، قبل الدولة الوطنية، وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي؟

في فترة ما قبل قيام الدولة الوطنية كانت مسألة الحريات السياسية متوافرة، وكانت مسألة الإصلاح الديني في منزلة الإجابة عن تحديات التقدم الأوروبي مقابل التخلف الإسلامي، وعند قيام الدولة الوطنية العلمانية والانهيار القاسي للخلافة، تطابقت استعادة الخلافة مع استعادة الإسلام، فثمة انهيار سياسي وإقصاء ايديولوجي للدين تراكبا في الدولة الحديثة، ومنذ ذلك الحين بدأ الفكر الديني الإصلاحي بالانحسار، وانه لمن اللافت للانتباه ان يكون كل إرث الفكر الإصلاحي الديني منذ ذلك الوقت والى مطلع تسعينات القرن الفائت لا يعادل ما أُنجز في حقبة ما قبل الدولة الوطنية، وأن تكون الراديكالية الإسلامية وليدة هذه الحقبة، وتحديداً في ذروة يُسرويتها وديكتاتورياتها العنيفة في سبعينات القرن المنصرم... لقد شهدت هذه الحقبة قحطاً واضحاً في الفكر الإسلامي الإصلاحي لم يشهده في عقود قبلها.

لقد مثل سقوط الاتحاد السوفياتي سقوطاً وهزيمة منكرة للماركسية، التي كانت قد حصرت معركتها الدينية مع الفكر الإسلامي، وبسقوطها فُرجت أمام الإسلاميين معركة الهوية، لكنها لم تُفرج في شكل نهائي، فالمسألة السياسية لا تزال مستعصية على الإصلاح الجدّي، صحيح أنه أتيح لإسلاميين في عدد كبير من البلدان الإسلامية التعبير عن تصوراتهم وقناعاتهم السياسية، لكن يقي ينظر اليهم بتوجس وريبة، ومع ذلك بدا واضحاً أن ثمة حركة ولدت من جديد في التسعينات وهي الآن تسير بوتيرة متصاعدة. فهي تستند الى معرفة جيدة بالفكر الحداثي الغربي ونتاجه المعرفي الجديد (بسبب موجة الترجمة للفكر الليبرالي الفلسفي والاجتماعي) كل ذلك يعني ان الانفراج السياسي والايديولوجي لهما الدور الرئيس في نمو الفكر الإصلاحي والتجديدي الإسلامي، والا كيف نفسر ان الفكر الإسلامي الأكثر ليبرالية وانفتاحاً في المجال السياسي والفلسفي يتطور الآن؟

كاتب سوري